أنتيبرجوس

(1)

«أنتيبرجوس»[1] بوابة التواصل نحو الشرق .. على أديمها دار صراع طويل ومدمر.

عندما احتلها الغزاة الطليان أحاطوها بسور ضخم .. ارتفاعه متران .. وأعلاه مثبت بشظايا الزجاج .. له بوابتان أطلقوا على بوابته الغربية باب درنة وعلى بوابته الشرقية باب السلوم ومنع الاحتلال الإيطالي الليبيين من دخول المدينة إلا تحت السياط أو القيام بأعمال السخرة وغيرها من الأعمال الوضيعة. أو بتصريح رسمي يسمى البرميسو.

حدثني أبي عن المدينة عندما كنت صغيرًا وقال لي:

ـ عندما أشعل الرجل الأبيض فتيل الحرب الكونية الثانية أوصدت المدينة أبوابها من جديد في وجه قاطنيها الذين فروا

(1) أنتيبرجوس: الاسم التاريخي القديم لمدينة طبرق.

من جحيم الحرب المدمرة واختفوا في المرصص والكهوف والوديان المجاورة ...

توالت الهجمات على المدينة الشهيدة. وتساقطت أطنان القنابل عليها .. حاصرتها آلاف الوحوش الحديدية تمترست بقلاعها أعتى الجيوش .. تكسرت على صخرتها ملايين السيوف والنصال .. بكى على أعتابها دهاقنة الحرب وأدهى الجنرالات بعد سنوات خرجت «أنتيبرجوس» من الحرب منهوكة القوى ممزقة الأوصال ..

بعدما ألقى المتحاربون أسلحتهم وآلياتهم وذخيرتهم على أبواب المدينة وضواحيها في كل شارع في كل وادٍ في كل سهل آليات مدمرة .. سيارات معطلة .. دبابات معطوبة وحطام طائرات. ذخيرة من مختلف الأشكال والأنواع والأحجام .. قنابل ألغام أفراد دبابات بقايا صواريخ وراجمات .. أحذية ملابس عسكرية .. أواني طعام. خوذات .. قلادات .. سلاسل .. مفاتيح .. بقايا ذكريات وأحلام لم تتحقق تحولت

كلها إلى غنائم سهلة في أيدي أناس لم يشاركوا في الحرب وإن دفعوا ثمنها باهظًا فيما بعد.

فما إن وضعت الحرب أوزارها، حتى هبط على المدينة رجال كثر أرهقتهم الفاقة وأنهكتهم الحاجة للعمل .. فتدافعوا على جمع الرابش كيفما اتفق ... يفككون القنابل والألغام لسد رمق أبنائهم .. فلا يلبثون حتى يتحولوا إلى وجبة متناثرة في العراء.

حدثني الحاج خير الله الشاعري عن تلك الفترة القاسية وقال:

ـ لقد سقط الكثير يا بني من ضحايا جمع الرابش في هذه المدينة أتذكر أربعة رجال من الزنتان تفجرت فيهم قنبلة بالقرب من المستودع الذي كنت أحرسه أتذكر يومها كيف تطايرت أشلاءهم وتناثرت من جراء الانفجار ولم اجمع من عظامهم ولحمهم إلا القليل حيث دفنته في ذلك الرمس.

لقد كان يُسْمَع كل يوم في أرجاء «أنتيبرجوس» دوي الانفجارات التي كان يذهب ضحيتها العديد من المواطنين

نشطت تجارة الخردة وتدافع الأهالي مع غيرهم على جمع الرابش (مخلفات الحرب) من نحاس وألومونيوم وحديد لقاء دراهم معدودة كان يمن بها عليهم ذلك المقاول اليهودي السمسار «بيوناحوم» الذي أصبح يمتلك أكبر مستودعات في أطراف المدينة .. ثم أخذ ينقل ما خزنه في تلك المستودعات عبر الميناء إلى البواخر التي تحمله إلى أوروبا ويبيعه هناك بملايين الدولارات.

أخبرني عمي صالح قائلًا:

ـ لقد عملت في شبابي في مستشفى «حبشي» في بداية الخمسينيات .. وقد كانت تصل إلينا أعداد كبيرة من ضحايا الرابش كل يوم .. وأتذكر جيدًا كيف جاءنا الدكتور حبشي من لبنان ولم يكن يعرف شيئًا عن الجراحة والعمليات والذي سرعان ما تفنن وتعلم في أجساد الليبيين فن إجراء العمليات الجراحية حتى أنه لم يمض عليه عدة شهور حتى أصبح طبيبًا جراحًا مشهورًا يشار إليه بالبنان.

كما كانت تعمل معنا في مستشفى حبشي العديد من الراهبات الممرضات المخلصات وعدد قليل من العاملات الليبيات وهنّ فوزية ورجعة ثم عائشة التي أصبحت زوجة لي فيما بعد.

هذه هي «أنتيبرجوس» التي احتضنت الجميع، وفتحت ذراعيها لكل من جاءها فهي آسرة محبوبة يجد فيها الراحة والهناءة كل من يستقر بها. أسر وعائلات معروفة كانت يعرف بعضها بعضًا من خلال التواصل والاحترام المتبادل والمحبة.

«أنتيبرجوس» ملحمة شجية وأغنية عذبة يحتضنها البحر من ثلاث جهات.

(2)

كانت «الحطية» تجثم فوق ربوة عالية تطل على البردي القريب من البحر والذي تحتجز مياهه الأسماك في حالتي المد والجزر وهي امتداد الأرض غرب الشاطئ.

«الحطية» كانت خارج سور المدينة وتستلقي على ضفتي شارع رئيسي تتقابل فيه الدكاكين والمحلات التي تبيع المواد الغذائية والكيروسين، أتذكر من تلك المحلات دكان العجيلي، ودكان القري، ودكان أبعيو، ومجزرة سيدي بلقاسم الوحيدة، ودكان بن طاهر، ودكان بن عيسى وغيرهم...

على ذلك الشارع الذي يفصل «الحطية» إلى قسمين كانت تسير عربات الحمير العائدة من سوق المدينة المحملة بالحطب أو براميل المياه العذبة أو تلك التي كانت تحمل الدقيق والقادمة من طاحونة بوسيف.

مازلت أتذكر عربة عمي المقرحي والتي كان يجرها حصان حيث كان يبيع الكيروسين للأهالي، وكذلك عربة بوالشقرا وعربة بوحرق وغيرهم.

حدثني أبي عن «الحطية» قائلًا:

ـ «الحطية» يا بني على أيامنا لم تكن سوى نجع بدوي، مكون من بيوت الصوف والقماش المتراصة فوق هذه الربوة،

وهي خارج سور المدينة، وبالقرب منها وادي الجدارية، ولكن بعد عشرات السنوات، تحولت الحطية إلى أكواخ من الصفيح المتلاصقة وبيوت من صناديق الذخيرة الفارغة.

«الحطية» على أيامنا كانت تقطنها عائلات فقيرة وكادحة لكن لا توصد أبواب بيوتها في وجوه بعضها البعض، عائلات تغمرها المودة والمحبة، أكواخها دائمًا مشرعة الأبواب وصنبور مياهها الوحيد الجاثم وسط الحي ملتقى العشق والعشاق ومكان لمعرفة جميع الأخبار والقصص كقصة مدينتي هذه التي لم تزل غافية على أعتاب البحر كحورية عاشقة ... «الحطية» كانت تمتاز بجمال موقعها على الشاطئ الغربي، هذا الشاطئ الجميل برماله الناعمة وزرقة مياهه ونظافته.

(3)

ها أنت تضيع أوقاتك في البحث عن الدود في الأماكن الخربة سواء في وادي الجدارية أو في النفايات الكريهة .. تقتل

نهارك باصطياد الطيور ونصب الفخاخ، وما أن تلمح أي طائر .. بوصفرة .. بوحمرة .. بوركيزة .. عضيضة. حتى تأخذ في مطاردته وملاحقته وتخاطبه وأنت على بعد بضعة أمتار منه في خبث ودهاء وتضع أصابع يدك اليمنى أسفل ذقنك الصغير وأنت تردد بصوتٍ عالٍ:

ـ يا بوصفرا غادي .. غادي أشوي شور الناطور .. تلقى دودة جاعور .. صفراء وتدُور ..

كأن الطائر يفهم لغتك. وتنطلي عليه حيلتك وخدعتك له، فيقفز ويتطاير في اتجاه الناطور حتى يقترب من الفخ المخفي تحت التراب ولا تظهر منه سوى تلك الدودة البللورية الصفراء .. يشعر بشهية نحوها .. تتبعه أنت في حذر وترمقه في فرح وما أن ينقض على تلك الدودة وهو يحاول الإمساك بها والتهامها حتى يطبق عليه الفخ ويظل ينتقض ويتقلب على التراب دون أن يستطيع الخلاص من الفخ.

تهرول أنت نحوه في فرح وانتصار وتقبض عليه بين يديك وهو يرتعش تشعر أنت بالزهو والغبطة ثم تنصب الفخ من جديد بعد أن تضع بداخله دودة بللورية صفراء أخرى، وتأخذ في البحث عن طائر آخر حتى توقعه في الشرك.

وما أن تختفي الشمس خلف الأفق البعيد، حتى تعود أدراجك إلى كوخك الصفيحي، وبين يديك سلة صغيرة مملوءة بعدد من العصافير التي اصطدتها.

وبعد انتهاء موسم الطيور، كنت تلعب مع رفاقك من صبية الحطية بالبطش والتصاوير، أو بتك العربات الصغيرة التي كنت غالبًا ما تصنع عجلاتها من علب الحليب الصغيرة، أو مغاطي القازوزة، أو تطارد «الجرابيع» في سبخة الحطية وتظل تحفر عليها، بل وتدخل يدك في تلك الحفر والسراديب، في جرأة دون خوف أو وجل في أن يلدغك ثعبان أو تلسعك عقرب، وما أن تقبض على واحد من تلك «الجرذان» حتى تشعر بالبهجة وأنت تشويه على نار الرمث الهادئة وتلتهمه في

لذة ونشوة فهو وجبة دسمة طيبة بالنسبة لك، بعد ذلك تعود أدراجك من جديد نحو الكوخ الذي ينتصب هناك فوق تلك الربوة في مدخل الحطية .. كم كانت طفولتك شقية وبائسة ولكنها كم كانت جميلة وأنت تمرح هنا وهناك دون قيود، في حرية طفولية بريئة.

لكن فجأة تغيرت حياتك وانقلبت رأسًا على عقب عندما أطل جاركم سميع عصر ذلك اليوم وأخذ يتجاذب أطراف الحديث مع والدك شرعت تنصت للحوار الدائر بينهما:

ـ ابنك يا نصيب هذا كم عمره اليوم؟

أجابه أبوك في بساطة:

ـ قد تجاوز سن التاسعة ..

قال له الحاج سميع في غضب:

ـ وكيف تدعه هكذا وقد كبر؟

ـ وماذا أفعل له؟

ـ أدخله المدرسة ...

تردد أبي قائلًا في حيرة: ولكن ...

قاطعه الحاج سميع:

ـ لا تحمل همًّا يا جاري سوف آخذه معي غدًا إلى المدرسة القرآنية ...

شعرت بالرهبة والخوف .. المدرسة القرآنية .. الفقيه والفلقة والعصا والحرمان من اللعب واصطياد الطيور والاستيقاظ مع الصباح الباكر.

ومع صباح اليوم التالي كنت ترتدي البنطلون الجديد والقميص الأبيض الذين اشتراهما لك أبوك وكذلك الحذاء، ووضعت الكراسات والأقلام في كيس الدقيق الذي جعلت منه حقيبة لك.

وانطلقت مع الحاج سميع على الأقدام من «الحطية» في اتجاه المدرسة في أقصى الشرق خلف قصر الملك .. بعد أن وصلتما أدخلك الحاج سميع فصل الصف الأول ودلف بك نحو الفقيه، الذي كان يجلس على الكرسي في مواجهة

التلاميذ، يرتدي جرده الأبيض وشنة حمراء على رأسه، والتلاميذ يجلسون أمامه في الأدراج، وهم يتمايلون ويهزون رؤوسهم وبين أيديهم الألواح الخشبية، وما أن دخلت حتى صوبوا أعينهم نحوك، شعرت بالخوف يعتريك تمنيت في تلك اللحظة لو أنك تستطيع الفرار والرجوع من حيث أتيت .. ولكن لا مفر ولا حيلة لك في ذلك.

نهض الفقيه من على كرسيه وأخذك حيث أجلسك في الدرج الأمامي إلى جوار طالب صغير، كان يحدق في لوحه وهو يتمتم بكلمات، ثم اختفى بعد ذلك الحاج سميع بعد أن أوصى بك الفقيه خيرًا .. بعد برهة أشار إليك الفقيه أن تحضر إليه ومثلت بين يديه ووقفت.

أخذ لوحًا كان إلى جواره ووضعه على منضدة أمامه غمس قلم القصبة في زجاجة الحبر المصنوع من الصوف المحروق وشرع يكتب بخط جميل بينما كنت تقف أمامه مرتبكًا في خجل وحياء وهو يرتل أمامك وأنت تردد خلفه

بسم الله الرحمن الرحيم .. الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين..

ثم أمرك بالعودة إلى مقعدك وتلاوة السورة عدة مرات حتى تحفظها وتسمِّعها في الغد.

صرت تقرأ بصوتٍ عالٍ ما كتب في لوحك مثل رفاقك وكنت عندما تعجز عن قراءة أي آية تطلب من رفيقك الذي يجلس إلى جوارك قراءتها لك.

ومع مضي الوقت دق جرس المدرسة معلنًا استراحة الإفطار .. وضعتم الألواح جانبًا وقفزتم تهرولون نحو المقصف ووقفتم في طابور طويل كانت تورزع عليكم شطائر الحلوى المعجونة.

ومن يومها تبدد خوفك وتلاشى ذعرك وأحببت المدرسة والاستيقاظ الباكر.

ووزعت المدرسة عليكم البدل الشتوية والأحذية الشيكية بالمجان وكذلك إفطاركم كان كالعادة: يومان شطائر حلوى

معجونة ويومان شطائر التن ويومان شطائر المربى بالإضافة إلى أكياس التمر والكاكوية التي كانت توزع عليكم كذلك بالمجان كل خميس.

ومن يومها تعلمت في تلك المدرسة كيف تفك الخط وتتعرف على طلاسم الكلمة.

كما عقدت صداقات وطيدة مع أترابك في تلك المدرسة التي أحببتها واحترمت مديرها الجليل وأساتذتها وفقهاءها وتلامذتها والمشرف أبريك الدمنهوري.

(4)

منذ ذلك اليوم أصبحت تخرج كل صباح من كوخكم في الحطية وتسير على قدميك حاملًا حقيبتك الصغيرة متجهًا نحو مدرستك القابعة هناك في أقصى شرق المدينة مع غيرك من الطلاب. كانت حركة السيارات محدودة وكذلك الأهالي القاصدون أعمالهم، كانوا يسيرون على الأقدام .. والحافلات

مفقودة إلا عند الجيش الإنجليزي في الحامية أو القاصدة قاعدة العدم ..

ما إن تجتاز سبخة الحطية حتى تصعد نحو المدينة، تخترق شارع الجيش المؤدي إلى الحامية البريطانية، مارًا بالقرب من ورشة جملي، ما أن تدخل شارع الكيت كات حتى تقابلك تلك الطاحونة الوحيدة العتيقة في المدينة، كان البدو يربطون حميرهم حولها، وقد جاءوا بالقمح والشعير لطحنه في طاحونة الحاج بوسيف والتي كان يشغلها في البداية بالنفط وكانت بدايتها بطحن القمح والشعير للأهالي، وفيما بعد صار يشغلها بالكهرباء وكذلك كان يشتري البهارات كمادة خام ويقوم بطحنها وبيعها للمواطنين.

وقد ذكر لك والدك أنه في إحدى سنوات الجفاف الماضية اشترى الحاج بوسيف الشعير من خارج البلاد وأخذ يقوم بطحنه هو وأبناؤه وبيعه للأهالي ..

ما إن اجتزت الطاحونة حتى لاحت لك البيوت العصرية الحديثة، المستلقية على جانبي الشارع والتي تقطنها العائلات

الإنجليزية، والتي يعمل قاطنوها في الحامية البريطانية الجاثمة عند نهاية شارع الجيش أمام حي شاهر روحه، أو في قاعدة العدم التي تبعد عن طبرق في الجنوب الشرقي بحوالي ثمانية وعشرين كيلو مترًا.

أما أنتم الفقراء فتأوون إلى الأحياء الفقيرة مثل الحطية وجبيلة النور وباب درنة وتقطنون أكواخ الصفيح والزنك.

ما أن تصل إلى نهاية شارع الكيت كات أو شارع طاحونة بوسيف، حتى تدخل شارع الاستقلال، وتمر من أمام الكنيسة الرابضة في وسط المدينة وتتجه نحو الشرق حتى تصل إلى مدرستك خلف قصر الملك دار السلام في أقل من ساعة، مع بداية كل يوم دراسي جديد.

لم يعد لديك أوقات للعب والراحة سوى في أيام الإجازات والعطلات الرسمية، كنت تعود كل يوم قبيل غروب الشمس، بعد انتهاء اليوم الدراسي باستثناء يوم الجمعة وتدخل شارع الاستقلال، ثم تتجه نحو عمارة الماجري

حيث تمر من أمام مصوراتي بالحولة، وهو المصور الوحيد في المدينة حينذاك، الذي جاء من مدينة درنة، وفتح معملًا للتصوير اليدوي في تلك العمارة، وكانت الصور التي يقوم بتصويرها وطبعها هي أبيض وأسود، ولا تتعدى تسعيرة الست صور أربعين قرشًا، كان استلام الصور لأهل المدينة بعد أربع وعشرين ساعة أي في اليوم التالي، أما الذين جاءوا من القرى البعيدة فكانوا يستلمون صورهم بعد ساعة واحدة من التصوير، حيث كان بو الحولة ومعه خالد بو سميحة يقوم بطبعها وتحميضها.

تتجه نحو الغرب مع ذلك الشارع عائدًا إلى كوخكم وبعد أن تنحدر تلوح لك من بعيد الحطية فوق تلك الربوة العالية.

كانت تلك المدرسة القرآنية الوحيدة في المدينة طلابها خليط من أبناء الأسر الكادحة وأبناء بعض التجار المحدودين في المدينة.

كنتم في تلك المدرسة لا تعرفون بعضكم إلا من خلال أسمائكم فقط أنتم الطلاب لا تعرفون هذا من أي قبيلة يكون ..

نظام الدراسة في المدرسة كان يبدأ من الثامنة والنصف صباحًا بحفظ وتلاوة القرآن الكريم على أيدي فقهاء من أمثال عبد الرسول المهدي، أحمد عثمان البكاي، داود مسعود، رجب الزليطني، محمد القماطي، محمد نوح، محمد شلوف.

وبعد الاستراحة كنتم تدخلون الفصول وتدرسون المعارف والعلوم على أيدي أساتذة أجلاء من أمثال فرج بدر الشاعري وسعيد الشريف وعبد ربه أمعزب وعبد الله الزوي وإدريس النويصري وعبد الحميد الجياش وصالح الجالي وغيرهم..

ومن الذين استلموا إدارة تلك المدرسة تتذكر منهم عبد الرحمن المغربي وبعده عبد الرحمن الفاسي ثم الأستاذ سعيد الشريف.

كما كنتم تدرسون في فترة ما بعد العصر حتى غروب الشمس في حفظ وتلاوة القرآن الكريم.

وتمضي بكم السنوات وكنت دائمًا تنجح في تلك المدرسة بتفوق ومن الأوائل ..

(5)

وعندما وصلت إلى الصف الخامس في المدرسة القرآنية توثقت صلتك بصديق كان معك في نفس الفصل بل في نفس الدرج أسمر البشرة نحيل العود شعره أجعد يدعى صالح كنت تذهب معه إلى بيته الذي يقع خلف فندق بلاس هوتيل في المدينة وبعد تناول الغداء كان يأتي بآلة البيانو الصغيرة يعزف عليها وتبدأون في تقليد فريد الأطرش في بعض الأغاني وبعد ذلك في المساء كنتما تذهبان معًا إلى سينما هايتي والتي كانت تقع أمام فندق الخضروات الزجاجي وقسمت إلى درجة أولى في الدور العلوي، ودرجة ثانية في الدور الأرضي، وزودت بكراسي خشبية وإضاءة ومعدات تشغيل حديثة، وتتذكر أنكما دخلتما معًا ذلك الفيلم المصري والذي كان بعنوان «حب حتى العبادة».

وكان طاقم التشغيل لدار العرض تلك يتكون من كل من خميس التاورغي وحمد الصفراني وعلي المقيرحي، أما الشباك والنظام فكان من اختصاص عطية الشاعري، آدم الحداد، مفتاح بن زابيه، عثمان لامين، أحمد مصطفى عكرّك، وكان بتلك الدار مقهى يديره عمي علي العمامي حيث يقدم السندوتشات اللذيذة والمشروبات والمرطبات والسجائر لرواد السينما.

وتتذكر من أشهر الأفلام التي شاهدتها في تلك الدار الفيلم الهندي من أجل أبنائي والذي استمر يعرض لأكثر من أسبوعين كما أعيد عرضه لعدة سنوات متتالية وكذلك الأفلام الأمريكية والمصرية والإيطالية ..

وكان لصاحب هذه الدار هايتي والتي أصبحت تسمى باسم صاحبها دار حلمي فيما بعد مقعدٌ في مقدمة الصالة حيث كنتم تشاهدونه وقبل التشغيل يجلس في المقدمة وبجانبه ميلود المشرف الذي دائمًا يحبه ويعطف عليه وبيد

كل واحد منهما كيس زريعة وبعد انتهاء الفيلم كنا نسأله عن الفيلم فيردد عبارته المشهورة:

ـ هذا فيلم جبار ..

وتتذكر أنه بعد مشاهدة فيلم «حب حتى العبادة» جلست أنت وصالح في الفصل، مع صباح اليوم التالي ودون أن يفطن لكما الفقيه رجب الزليطني وأخذتما تكتبان مشاهد الفيلم والسيناريو في كراسة صغيرة كانت معكما .. وما أن يحين موعد العطلة الصيفية حتى تمرح وتلعب وتصطاد البوري من بردي الحطية وفي بعض الأحيان تجمع النحاس والألومنيوم، وتحمله إلى المرغني في وسط المدينة حيث كان يشتريه منكم ببضعة قروش تدخل بها سينما الأهلي «الزني» أو سينما هايتي حلمي، وتشتري شطيرة التن بالهريسة وزجاجة المشروب، من عمك علي العمامي وفي الليل في أيام الدراسة كنت تكتب واجباتك وتقرأ دروسك داخل ذلك الكوخ على ضوء فنار

الكيروسين، فلم تكن الكهرباء وصلت للحطية بعد، وبدأت تكبر وتقضي أوقاتك على شاطئ كورنيش طبرق برماله الناعمة البيضاء أما شاطئ الليدو في المنارة فهو ممنوع عليكم لا يدخله إلا أبناء الإنجليز وعائلاتهم فقط ويحاط بسياج لمسافة كبيرة ويتعرض للعقوبة والسجن كل من يقترب من ذلك السياج.

وكنتم تفرحون عندما يقوم أحد الصيادين بضرب لغم في البحر «جلاطينة» حيث كنت تغطس أنت وعبد السلام عمر والصافي فتح الله وتخرجون بالكثير من الأسماك التي تأخذ في الطفو على سطح الماء.

(6)

تذكرت ذلك اليوم عندما كنت طالبًا في الصف السادس بالمدرسة القرآنية وكيف دخل عليكم مدير المدرسة في الصباح بعد الاستراحة ووقف أمامكم قائلًا:

ـ طلابي الأعزاء لن أطيل عليكم الحديث في إيجاز أقول لكم أنتم تعلمون أنه في هذه المدينة لا يوجد معهد ديني وعليه فإنكم سوف تبقون للإعادة سنة أخرى في الصف السادس بهذه المدرسة ..

واختفى بعد أن أوصد الباب خلفه وترككم في حيرة وقلق يا لها من صدمة قاسية ..

ماذا سأقول لأبي وأمي؟ هل أقول لهما إن الامتحان قد تأجل للعام الآخر إنهما قد لا يصدقان ذلك.

لم تنم في تلك الليلة وأنت تفكر فيما أخبركم به مدير المدرسة حتى اهتديت إلى فكرة ما إن أشرقت شمس الصباح حتى سارعت إلى تنفيذها .. بعد أن تغيبت عن الدراسة هرولت نحو المدينة اقتربت من مكتب الامتحانات الذي كان يقع وسط المدينة وبالقرب من مدرسة الفيحاء للبنات دخلت على المدير الذي كان يقبع خلف مكتبه ينكب على الملفات التي أمامه يتفحصها حبيبته .. رفع رأسه ونظر إليك

بعينين ضيقتين من خلف نظارته الطبية كان يبدو نحيل العود أصلع الرأس قدمت له الطلب وحدثته برغبتك غير أنه بادرك قائلًا:

ـ لقد تأخرت يا بني، تردد، لكنه أمام إصرارك وإلحاحك وقع على طلبك بالموافقة وطلب منك بعض المستندات وصورًا شخصية .. ومنذ ذلك اليوم اتصلت بأصدقائك في الحطية عبد السلام، دخيل، محمود، وطلبت منهم مفردات المنهج والمقرر والمذكرات والكتب.

فكل واحد منهم ساعدك بما يستطيع من كتب ومذكرات .. لم يبخلوا عليك بالمساعدة والشرح حتى للعمليات الحسابية الصعبة .. لم يمض شهر من المذاكرة المتواصلة في ذلك الكوخ حتى كنت قد أصبحت ملمًا بالمنهج الخاص بالصف السادس.

وفي الموعد المحدد للامتحان حيث يكرم المرء أو يهان دخلت امتحان الشهادة الابتدائية مع طلاب مدارس المدينة

وكان المقر الوحيد لأداء الامتحان في مدرسة المجد الجاثمة وسط المدينة والتي كانت في السابق مستشفى «حبشي».

استمر الامتحان ولمدة أسبوع كانت الملاحظة عليكم شديدة من قبل المعلمين وكذلك لجان المراقبة والامتحان ..

وأي إلتفاتة أو محاولة للغش يجد الطالب نفسه محرومًا من امتحان الدور الأول ومضت أسابيع على ذلك الامتحان الصعب بعد حوالي شهر أذيعت قوائم الناجحين من راديو المملكة حينذاك حيث كنت من بين الناجحين بتقدير جيد.

ويومها أحسست بالسعادة تغمرك لأن التعب والمذاكرة وسهر الليالي لم يذهب كل ذلك سُدىً.

ها أنت قد اجتزت تلك المرحلة الصعبة وقفزت إلى الإعدادية ولن تبقى سنة أخرى في الصف السادس بالمدرسة القرآنية .. تركت زملاءك في القرآنية ..

قضيت الإجازة الصيفية سعيدًا لأول مرة وبينما كنت تتجول في أحد شوارع المدينة وبالقرب من مقهى البلدية

عثرت على مكتبة عامة دخلت إليها في تردد، فوجئت بها مكتبة عامرة بالكتب والمجلات والصحف كانت تنقسم إلى قسمين قسم للأطفال وآخر للكبار.

بها العديد من القراء اطلعت على مجلات الأطفال، سمير وميكي، وقصص الأنبياء للصغار.

عرفت موظف المكتبة إنه من نفس سكان «الحطية» كنت دائمًا تلمحه في طريقه إلى المكتبة يمشي على قدميه من «الحطية» إلى المكتبة يتأبط كتابًا إنه نحيل العود متوسط الطول في مقتبل عمره يبدو وكأنه كان يعمل معلمًا عرفت فيما بعد أن اسمه أحمد حريص على الكتب يدعو الصغار إلى الهدوء والمطالعة في صمت .. ومن يومها أخذت تتردد على تلك المكتبة في فترة ما بعد العصر حيث تطَّلع على الصحف والمجلات العربية وقصص الأطفال وعندما لاحظ ذلك الموظف ترددك الدائم وشغفك بالقراءة والاطلاع طلب منك بعض البيانات والصور الشخصية وصرف لك بطاقة إعارة.

ومن يومها أصبحت تستعير الكتب الأدبية والدينية وقصص الأنبياء وألف ليلة وليلة وترجعها إلى المكتبة بعد أيام محدودة.

حيث اطلعت على قصص محمود تيمور وقصص وروايات توفيق الحكيم وعبد الحميد جودة السحار ومحمد عبد الحليم عبد الله وعلي مصطفى المصراتي وعبد الله القويري وغيرها.. هذا بالإضافة إلى دواوين الشعراء نزار قباني وإبراهيم ناجي وأحمد رفيق المهدوي وإبراهيم الأسطى عمر وأحمد الشارف وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم وتلك كانت البداية مع الكتاب ..